الفصل السادس

«قائد رحلنا»

عندما شددنا الأعنة كان العبيد قد أضرموا ناراً هائلة إشارة لجمع فرسان القبيلة. قيل إن حملة غزو كبيرة من البشري (قبائل العنزة الثلاثة المتحالفة: فدان ـ سبا ـ أمارات) تتقدم نحونا. وقيل إن عددهم حوالي خمس مئة راكب جمل وبضع مئات من خيول الحرب. ربما كانت الأعداد مبالغاً فيها.

في تلك الليلة اتخذ الأمير فواز كل الترتيبات وعُيِّن فارس قائداً للحملة. وقبل أول خيط من خيوط الفجر كان فارس بجانب فراشي وسمعته يقول ضاحكاً «انهض إذا كنت تريد الركوب معنا». قفزت واقفاً وبدأت بالاستعداد للمسير. ناولني فارس قربة مليئة بالماء، وكتلة من التمر، وبضع كرات من الجبن البدوي القاسي بحجم قبضة اليد، وكدسة من الخبز الطازج. وبمساعدة مناحي ـ الذي عيّن مرافقاً لي وضعت كل شيء في خرج ذلولي، وأسرجت **سدحا** فرس الحرب البيضاء وربطتها من رسنها إلى حزام الذلول. وعندما بدأنا السير كان الظلام سائداً إذ إن القمر قد غاب. كان الليل هادئاً وأصوات الفرسان الذين يغنون أثناء السير لم يرجع لها صدى بل عبرت الصحراء كموجة صوتية: خفية، سحرية، جميلة. وبدت في الظلام خيالات الجمال. وبين الفينة والأخرى كنت أسمع

صوت النعال الخفيف، أو صرير السروج. وهكذا ـ كفرسان من عالم آخر ـ تابعنا مسيرتنا الصامتة بين التلال حتى طلع الفجر علينا وأشرقت الشمس.

وقد زينت رقاب وجوانب جمالنا بالحمائل الفضية الدقيقة والأحزمة المضفورة والأرسنة الملونة المزخرفة بالخرز الأزرق والأحمر. وبجانب الجمال هرولت الجياد برقاب مقوسة قليلاً، وظهور ناعمة مشدودة، وذيول عالية، تربطها إلى الجمال القطعة العليا **الزاهية اللون من تجهيزات رؤوسها**؛ لأن البدو في الجزيرة العربية ــ بعكس البدو الأفارقة ــ لا يستعملون الشكيمة ولا اللجام. **ومرشمة** السرج الرقيقة تصنع من جلود النمر أو الغزال ويربطها الحزام الجلدي الضيق.

وربض الركاب المرافقون خلف رفاقهم على سنام الجمال العالية وبنادقهم جاهزة كقطط برية بأعين براقة وعضلات متوترة. وتماوجت فوق أكتافهم أطراف كوفياتهم التي لفوّها حول رؤوسهم ورقابهم.

وفي الظهيرة كان فارس يركب في مقدمتنا بين حراسه السود فأعطى الإشارة بتبادل الركوب. وكان قد رأى سحابة غبار سببتها على مايبدو سيارتان تقتربان بسرعة.

وفي لمح البصر رمى سبعة وستون رجلاً قوياً أنفسهم ــ وبنادقهم في أيديهم ـ من ظهور الجمال إلى ظهور الجياد وسحبوا الأرسنة من أحزمة الجمال. ثم غرسوا أكعابهم العارية في جوانب خيولهم وانطلقوا إلى الأمام، وضاعوا في سحابة من الغبار تاركين فرسان الجمال خلفهم الذين لا يسمعون سوى الصيحات الحماسية وصهيل الخيول وطرقات حوافرها. انطلاقة الخيول الجنونية جعلت فرسي «سادها» متحفزة فسحبت رسنها وأفهمتني بأنها تريد المشاركة أيضاً. تناولت بندقيتي الموزر وقفزت من ظهر ذلولي إلى ظهرها. واستجابت بصهلة لضغط ساقيّ، وانطلقت وراء الآخرين كالغزال عندما ناديت اسمها ووجهي تقريباً يلامس شعر رقبتها. واقتربت أكثر فأكثر من العصبة الهادرة أمامي وسرعان ما تجاوزت المؤخرة ولحقت بفارس وحرسه.

وظهرت الآن السيارتان فوق تلة وأدركنا على الفور أنهما سيارتان الرولة الحربيتان فوقفنا جميعاً وانتظرنا وصولهما. وثبت أنهما تحملان الأمير فواز نفسه يرافقه محجم وعدة رجال آخرين. لقد قبضوا في جوار المضارب على كشاف من بني صخر فرفض الإجابة عن الأسئلة، ومنع الأمير رجاله من انتزاع المعلومات منه بالتعذيب. ومنذ ظهور الجاسوس في تلك المنطقة وجد الأمير الشاب من المنطقي الاستنتاج بأن قبيلة بني صخر قد حملت السلاح ضد الرولة المهددة من الجهة الأخرى من البشري أيضاً. ولذلك قسم قواتنا: ثلث القوات الآن بقيادة محجم تبقى لمواجهة البشري، والثلث الآخر بقيادة فارس ينحرف إلى الجنوب الشرقي ضد بني صخر.

وبالطبع وضعت نفسي تحت إمرة فارس. وقبل افتراقنا عن الآخرين اشتريت ناقة سباق رائعة عمرها ست سنوات كان صاحبها الرولي قد غنمها من الشرارات، وهي ذلول غبراء لها رأس أسد وعينا غزال واسعتان. لقد هِمْتُ بحب هذا الحيوان الرائع من النظرة الأولى. كانت موضع اعتزاز صاحبها وكلفتني أكثر مما حلمت بدفعه لشراء ناقة سباق ـ ٦٥ جنيهاً استرلينياً ـ ولكنها كانت تستحق هذا المبلغ.

وأجمل شيء فيها وما سحرني أكثر من أي شيء آخر هو الخط المثالي الطويل للظهر، وخط المعدة المرتفع من عظم الصدر حتى الفخذين الخلفيين. هذه البنية السباقية منحتها حرية للخطوات الرائعة: متناسقة وخفيفة ــ سلسة وواسعة. كانت سريعة ولا تعرف الكلل سواء في العدو أو في الخبب كما برهنت على ذلك يوم اشتريتها. إنها لمتعة عظيمة أن يُتاحَ للمرء ركوب الحيوان الأصيل. حقاً إن شرائي لها كان صفقة موفقة.

إنها نحيلة ولكن لها قدرة احتمال غريبة على الرغم من أنها كانت مثقلة في أغلب الأحيان، وعلى الرغم من حجمها وبنيتها الخفيفة وعظامها الصغيرة فإنها حملت أثقالاً عظيمة. ومن حيث الحيوية كانت تضاهي أكبر وأقوى جمال السباق. ودون أن تفقد أية ذرة من رشاقتها وجمال منظرها حملتني هذه الناقة

الأصيلة لعدة أسابيع في تلك المسيرة الشاقة في النفوذ والعودة إلى المضارب دون أن تفقد بشرتها المخملية لمعانها. وحتى نفسها الحلو كان أبهج من نفس أي حيوان آخر من جمال السباق التي خبرتها. كان فخذها ورقبتها وساقاها نحيلة وسنامها صغير ولكنه صلب، وصوتها رقيق حنون سواء في **القرقرة أو النشيج**. وكانت على العموم تخاطبني بواسطة عينيها الناطقتين، أو بدفعة رقيقة من أنفها على كتفي أو ساقي. وكانت تحب كثيراً أن تحكّ جسمها عليّ وتلعب معي. وفي الليل أثناء اجترارها **تكنكن** وتلتوي بذكاء لتؤمن لي منامة مريحة بجانب جسمها الدافيء.

كان شدادها المزركش المصنوع من خشب الأكاسيا المرصَّع بالفضة، والمساند الجلدية الثلاثة، وجلود الأغنام، لايزال مستقراً فوق أرض غرفتي، وكثيراً ما أجلس عليه في المساء وأقرأ أو أحلم **بمها**[1] الشرارية السريعة. وعلى جدران غرفتي احتفظت بزركشات شدادها وخِرَجَتِها[2] الشَّعرية الكبيرة ذات الصفوف الطويلة من الشرابات المعقودة، والحافّات المضفورة التي كانت تتدلى حتى بطن مها، وتتأرجح بانسجام مع مشيتها. ولا أزال أحتفظ **برشمتها** أيضاً ـ تلك الرشمة الصوفية الجميلة الملونة بالأحمر والأزرق فوق خلفية سوداء.

واتجهنا نحو الجنوب يصيح بعضنا على بعض بسرور، ونغني أغاني الجمال. في الجزيرة العربية لا يحتاج المرء إلى مهماز أو كرباج لحثّ الخيول أو الجمال. فأغاني الراكبين الإيقاعية البهيجة، **وحَوْرَبتهم** المرحة، وأصواتهم الرخيمة الصافية تكفي. فالصوت العربي يختلف تماماً عن **النعيب** الرتيب الناعس الأخن عند المصريين والسوريين. وأغاني الجمال (الحداء) البدوي أيضاً منغّم وجريء ومسترجل؛ مما يجعل الجمال والخيول تحبُّ هذه التسلية. أثناء المسيرات يُغنّون ساعات وساعات ـ هؤلاء الراكبون النحاف الأشداء. ولكنهم غالباً ما يصمتون عندما يضنيهم الجوع والعطش والغبار، وعندما يكون من المناسب حماية الفم والأنف من الحرارة والرمال.

---

(١) مها: يقصد اسم الناقة التي يصفها.

(٢) خِرَجَة: مفردها خُرْج وهو وعاء معروف.